كُتَيِّب: النَّظْمُ الإِعْجَازِيُّ وَالتَّدَفُّقُ التَّفْسِيرِيُّ لِسُورَةِ النَّحْلِ

قراءة تفسيرية حركية وبلاغية فسيولوجية وتشريعية شاملة

إعداد وتأليف الباحثة: غصون بنت الصديقة

مُقَدِّمَةُ الكُتَيْبِ

الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى المَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. أما بعد؛
فهذا سِفرٌ تفسيريٌّ حركيٌّ وبلاغيٌّ، نَلِجُ من خلاله إلى آيات سورة النحل (سورة النعم)، لتفكيك أسرار النظم الإعجازي، والربط بين الآيات الكونية والبيولوجية وبين ذات الإنسان وحركته الدعوية والاجتماعية في الحياة.

📌 الفَصْلُ الأَوَّلُ: مَملَكَةُ النِّعَمِ وَأَسْرَارُ المَخْلُوقَاتِ (من الآية 65 إلى الآية 76)

🔹 أولاً: دورة الماء والحياة الحيوية

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) [النحل: 65]

إعادة بناء المشهد الحيوي: بعد تفكيك ضلالات التشريع الجاهلي، يعود السياق ليربط القلوب بالمصدر الأساسي للحياة وهو الماء.
بلاغة الفاء التعقيبية (فَأَحْيَا بِهِ): تفيد السرعة؛ فبمجرد نزول المطر وتفاعله مع التربة، تبدأ البذور الكامنة في الحركة والنمو، وهو تمثيل بصري لإحياء الموتى ونشورهم من القبور.
الختم بـ (يَسْمَعُونَ): السماع هنا هو سماع التدبر، والقبول، والامتثال؛ لأن حجة الإحياء بالماء حجة واضحة يدركها كل من ألقى السمع وهو شهيد.

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ) [النحل: 66]

المختبر الكيميائي الحيوي المعجز: إعجاز علمي وبياني مذهل في تفصيل كيفية تكوّن اللبن في أجساد الأنعام.
مِّمَّا فِي بُطُونِهِ: جاء الضمير تذكيرًا يعود على "الجنس" أو "الحيوان".
مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ: الفرث هو الطعام المهضوم المستقر في الكرش، والدم يسير في العروق، واللبن يتكون عبر غدد الحليب التي تمتص المواد الغذائية المستخلصة من الكرش عبر الدورة الدموية. فخروج مادة بيضاء ناصعة مغذية من بين قذارة الفرث وحمرة الدم دون أن تختلط برائحتهما أو لونهما هو قمة الإعجاز الصانع.
الخصائص الفيزيائية للبن:(لَّبَنًا خَالِصًا) صافياً نقياً من كل شوائب الدم والفرث، **(سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ)** يمر في الحلق بسهولة لذيذاً هنيئاً، يروي الظمأ ويغذي البدن.

🔹 ثانياً: نعم الأشربة وأسرار مملكة النحل

(وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [النحل: 67]

بلاغة التمييز بين الطيب والخبيث: قبل تحريم الخمر بالتدريج، وضعت هذه الآية المكيّة فاصلاً معرفياً؛ **(سَكَرًا)** وهو ما يُسكر العقل ويُذهبه (الجانب الخبيث المذموم)، **(وَرِزْقًا حَسَنًا)** وهو التمر، والزبيب، والخل، والعصير الطيب (الجانب النافع). وفي هذا لفتة إلى أن سوء استخدام الإنسان للنعم يقلبها إلى نقمة، وخُتمت بـ **(يَعْقِلُونَ)** لأن العقل هو الميزان.

(وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) [النحل: 68]

مفهوم الوحي الحيوي الخفي: الوحي هنا هو وحي إلهام، وغريزة، وهداية تكوينية أودعها الله في مخ هذا الكائن الصغير ليتحرك بنظام هندسي دقيق.

الهندسة المعمارية للنحل: رتب بيوت النحل حسب الأولوية الطبيعية والتاريخية: **(مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا)** البيوع البرية الأصلية الفطرية، **(وَمِنَ الشَّجَرِ)** تجاويف الأشجار الغابية، **(وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)** ما يبنيه البشر لها من خلايا اصطناعية ومظلات، لبيان تذليل سلوك النحل للتكيف مع البيئة الإنسانية.

(ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل: 69]

انقياد الحركة: تسير النحلة الكيلومترات الطويلة لامتصاص الرحيق، ثم تعود إلى خليتها بدقة متناهية لأن السبل قد ذُلِّلت ويُسِّرت لها بأمر الله.

الإنتاج الحيوي: (يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ) لم يقل عسلاً؛ بل سماه شراباً إشهاراً لسيولته وتنوع مصادره، **(مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ)** بين الأبيض والأصفر والأحمر والداكن حسب نوع الزهر والرحيق.

القيمة الطبية الشاملة: (فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ) نكّر شفاء ليفيد أنه شفاء لكثير من الأمراض البدنية والجرثومية، وجعله للناس عامة. وجاء التعقيب **(يَتَفَكَّرُونَ)** لأن تشريح النحلة، ونظامها الاجتماعي الصارم، وصنع الخلايا السداسية الرياضية يستدعي تفكراً طويلاً في عظمة الصانع.

🔹 ثالثاً: أطوار العمر والضعف المعرفي

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) [النحل: 70]

المنحنى البيولوجي للإنسان: ينتقل من الآيات الكونية الخارجيّة إلى ذات الإنسان البيولوجية.

أرذل العمر: هو سن الشيخوخة والهرم، وسمي أرذلاً لما يصاحبه من سقوط القوة البدنية، والذهنية، والخرف، والعودة إلى حالة الطفولة الأولى في الاعتماد على الغير.

الانتكاسة المعرفية الشاملة: (لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) تصوير دقيق لمرض الزهايمر والخرف؛ فالإنسان الذي جمع العلوم والخبرات، يرتد في نهاية عمره جاهلاً بأبسط الأشياء ليعلم البشر أن علمهم وقوتهم عارية مستردة من الله الخالق **(الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ)** .

🔹 رابعاً: سنن التفاوت في الرزق والمملوكية

(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) [النحل: 71]

قانون التفاوت الاقتصادي البشري: بنى الله المجتمعات على التباين في الأرزاق والمواهب لاستمرار الحياة والخدمة المتبادلة.

حجة نفي الشرك عبر التفاوت: يضرب الله مثلاً عقلياً لقطع دابر الشرك؛ فالأسياد والأغنياء المفضلون في الرزق لا يرضون أبداً أن يقسموا أموالهم بالتساوي مع عبيدهم ومماليكهم (**فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ**)؛ فإذا كنتم أنتم المخلوقين ترفضون مساواة عبيدكم بكم في أموالكم، فكيف ترضون لله سبحانه أن تساووا بينه وبين عبيده وخلقه (كالأصنام والبشر) في العبادة والتعظيم؟ إنها محاكمة عقلية تفضح تناقضهم.

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) [النحل: 72]

نعمة السكن العائلي والامتداد البشري (مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا): هن جنسكم البشري لتتحقق المودة والسكن النفسي. (**بَنِينَ وَحَفَدَةً**) البنون هم الأولاد المباشرون (قوة وسند)، والحفدة هم أولاد الأولاد أو الأعوان والخدم؛ لتأمين المنظومة الاجتماعية والامتداد العائلي عبر الأجيال. والتعقيب التوبيخي جاء مستنكراً إيمانهم بالأصنام الباطلة وجحودهم لهذه المنظومة المتكاملة من النعم.

🔹 خامساً: ضرب الأمثال الحية للمقارنة الوجودية

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [النحل: 73 - 74]

العجز الاقتصادي للأصنام: الأصنام لا تملك إنزال مطر من السماء ولا إنبات زرع من الأرض. وكلمة (**شَيْئًا**) جاءت نكرة لتفيد النفي المطلق لأقل القليل من الرزق. والنهي عن القياس الفاسد (**فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ**) يعني: لا تقيسوا الله بخلقه بناءً على مقاييسكم البشرية.

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [النحل: 75]

المَثَل الأول (العبد الحُر والمملوك): مقارنة بين شخصين: عبد مملوك لا يقدر على شيء عاجز تماماً مسلوب الإرادة (تمثيل للأصنام)، وحر غني فاعل متصرف بماله ينفق منه سراً وجهراً (تمثيل لله الخالق المنفق). والجواب العقلي الحتمي: لا يستوون.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [النحل: 76]

المَثَل الثاني (الأبكم والرشيد): مقارنة أعمق في الكفاءة الذاتية والحركية: الرجل الأول أبكم لا يسمع ولا ينطق وهو عبء ثقيل وعالة على صاحبه الذي يحمله وينحو (**كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ**) وأينما يوجهه لا يأت بنتيجة أو منفعة (تمثيل للأصنام). والرجل الثاني ناطق بالحق، مشرع للعدل، ثابت الخطى على طريق الهداية والاستقامة الشاملة

(مَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(مثيل لله جل جلاله). هذه المقارنة تلغي تماماً أي صلاحية للأصنام في أن تُعبد.

📌 الفَصْلُ الثَّانِي: غَيْبُ الغُيُوبِ، وَأَسْرَارُ البِنَاءِ وَالتَّمْكِينِ (من الآية 77 إلى الآية 89)

🔹 أولاً: السيادة المعرفية والزمنية وأدوات البناء البشري

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [النحل: 77]

بلاغة الاختزال الزمني (كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ)لسرعة انقضاء وقيام الساعة عند صدور الأمر الكوني الإلهي. اللمح هو إغلاق الجفن وفتحه سريعاً، وكلمة**(أَوْ هُوَ أَقْرَبُ)**لإلغاء أي مسافة زمنية متوهمة في عقول البشر؛ فالقوانين الوجودية تخضع لقدرة الله المطلقة.

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [النحل: 78]

البداية المعرفية الصفرية للإنسان:ولد الإنسان في حالة جهل مطبق سليب الخبرة والوعي، ثم وهبه الله الحواس الأساسية مرتبة ترتيباً فسيولوجياً وعقلياً دقيقاً**السَّمْعَ** لاستقبال الكلمات والأصوات (أول حاسة تعمل بكفاءة فور الولادة)،**الْأَبْصَارَ** لرؤية العالم المادي وتحليله**الْأَفْئِدَةَ** وهي العقول والقلوب التي تجمع معطيات السمع والبصر لتركيب الأفكار وإدراك الحقائق، والغاية هي شكر المنعم.

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [النحل: 79]

الأيروديناميكية الفيزيائية للطيران: لفتة بصرية للطبيعة؛ الطيور تسبح وتطير في هواء رقيق لا قوام مادي له للاستناد عليه، ومع ذلك هي**(مُسَخَّرَاتٍ)**عبر تكوينها التشريحي الانسيابي وقوانين الضغط الجوي؛ فممسكهن الحقيقي عن السقوط هو الناموس الإلهي.

🔹 ثانياً: سيكولوجية وعمارة السكن البشري والصناعات الحيوية

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ) [النحل: 80]

سيكولوجية السكن:(مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا)السكن هنا معنوي وحسي؛ مكاناً تطمئن فيه النفوس، وتستر فيه العورات، وترتاح فيه الأبدان.
البيوت المتنقلة: (مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا) وهي الخيام والفساطيط، خفيفة الوزن**(تَسْتَخِفُّونَهَا)** في الحمل والتركيب وقت السفر والترحال **(يَوْمَ ظَعْنِكُمْ)** ووقت النزول والاستقرار **(وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ)**.
الصناعات النسيجية والمنزلية: فصّل مصادر المواد الخام تَبَعاً لنوع الحيوان: **(أَصْوَافِهَا)** من الغنم، **(وَأَوْبَارِهَا)** من الإبل، **(وَأَشْعَارِهَا)** من المعز لصناعة الأثاث واللباس والمتاع المؤقت الممتد **(إِلَىٰ حِينٍ)** .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) [النحل: 81]

وسائل الوقاية البيئية والعسكرية: **(ظِلَالًا)** من الأشجار والأبنية للوقاية من قيظ الشمس، **(أَكْنَانًا)** المغارات والكهوف في الجبال للاحتماء من عواصف الطبيعة أو الأعداء. **(سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)** الثياب التي توازن حرارة الجسد، **(سَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ)** الدروع والحديد والملابس العسكرية الواقية في الحروب. والغاية الكبرى والنهائية لتعداد النعم هي سَوْق قلب الإنسان برفق وحب وخضوع للاستسلام والانقياد لله **(لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)** .

(فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) [النحل: 82 - 83]

جذر التناقض المعرفي والإنكار: إن أعرضوا فوظيفتك محصورة في الإبلاغ الواضح الجلي **(يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا)** هم في قرارة أنفسهم يعلمون أن الله هو الرازق، لكنهم ينكرون ذلك ظاهراً بألسنتهم وسلوكهم عبر نسبة النعم للأصنام أو لآبائهم عصبية وكبراً.

🔹 ثالثاً: بنية المحاكمة الأخروية وسقوط المعاذير

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) [النحل: 84 - 85]

البنية القضائية الأخروية: الشهيد هنا هو نبي كل أمة يشهد على استجابة قومه أو تكذيبهم. ويتم إغلاق كامل لباب تقديم الأعذار الواهية لأن وقت الحساب قد حان **(ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ)** ، ولا يُطلب منهم إرضاء ربهم بالتوبة لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل، وبمجرد رؤية جهنم تنعدم أي فرصة لتقليل العذاب أو التأخير والمهلة **(وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)** .

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذِ السَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) [النحل: 86 - 87]

مشهد التبرؤ الفاضح في المحكمة الكبرى: يحاول المشركون إلقاء اللائمة على أصنامهم، فتنطق الأصنام أو المخلوقات المعبودة بإذن الله وترد عليهم القول بقوة مبرزة كذبهم **(إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)** في دعواكم أننا أمرناكم بعبادتنا، ليتجرع المشركون غصة الخذلان التام، ويستسلموا وينقادوا خاضعين لحكم العدل الخالص **(وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذِ السَّلَمَ)** وتتلاشى الأكاذيب والشفاعات الزائفة.

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ * وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) [النحل: 88 - 89]

هندسة العقاب التصاعدي للمضلين: نالوا مرتبتين في الجريمة: الكفر الذاتي، وصد ومنع الآخرين عن اتباع الحق؛ فكان الجزاء من جنس العمل: **(زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ)**.
الشمولية المعرفية للقرآن: إتيان الأنبياء شهوداً من نفس لغة وجنس أممهم إقامة للحجة العادلة، والالتفات والتشريف العظيم للنبي محمد ﷺ كونه الشهيد المهيمن على أمته وسائر الأمم الشاهدة **(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ)**. وتتجلى الشمولية المعرفية والتشريعية للقرآن الكريم في كونه **(تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ)** مقترناً بثلاث صفات ممتدة: **(وَهُدًى)** مرشداً، **(وَرَحْمَةً)** منقذاً، **(وَبُشْرَىٰ)** مفرحاً للمسلمين.

📌 الفَصْلُ الثَّالِثُ: دُسْتُورُ التَّشْرِيعِ، فِقْهُ الإِكْرَاهِ، وَمَنْهَجُ الدَّعْوَةِ (من الآية 90 إلى الآية 128)

🔹 أولاً: دستور التشريع الإسلامي الأكبر والأخلاق والموثوقية السياسية

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [النحل: 90]

هذه الآية هي أجمع آية في القرآن للخير والشر، وهي دستور أخلاقي واجتماعي متكامل يتألف من:
الْعَدْلِ: إعطاء كل ذي حق حقه؛ وهو الحد الأدنى للتعايش البشري.
الْإِحْسَانِ: مرتبة أعلى من العدل؛ وهو التفضل، والمسامحة، وبذل الخير فوق الواجب.
إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ: صلة الأرحام ودعم الأقارب مادياً ومعنوياً لبناء الأسرة المتماسكة.
الْفَحْشَاءِ: مطلق القبح البالغ في الذنوب، والشهوات المحرمة (الفساد الأخلاقي).
الْمُنكَرِ: كل ما ترفضه الفطرة السليمة وترفضه الشريعة من أعمال وسلوكيات شاذة.
الْبَغْيِ: الاستعلاء، والظلم، والاعتداء على حقوق ودماء وأموال الناس بغير حق.

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) [النحل: 91]

قانون الموثوقية الاجتماعية والسياسية: الوفاء بالعهود في العقود والاتفاقيات الدولية والبيوع هو ركيزة بناء الثقة وتأمين المجتمعات. وبلاغة التغليظ **(بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)** تبين أن نقض اليمين بعد توكيده وتغليظه باسم الله هو استخفاف بجلال الربوبية وجريمة أخلاقية كاشفة عن غدر دفين.

(... وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) [النحل: 92]

المَثَل البصري العجيب للعبثية والنقض: تشبيه بليغ بامرأة خرقاء في مكة كانت تغزل الصوف طوال اليوم وتصنع منه غزلاً قوياً محكماً، ثم في نهاية اليوم تقوم بفك هذا الغزل وتقطيعه ليصبح شعراً متفتتاً ممزق **(أَنكَاثًا)**.
شبه القرآن من يعاهد ويحلف ثم ينكث عهده بهذه المرأة؛ ففعله ذروة العبث وتدمير الذات.
الانتهازية السياسية والاقتصادية والميكافيلية: تحليل بليغ لسبب نقض العهود بين الجماعات والدول؛ وهو طمع دولة في مصالح مادية أو عددية أكثر عند دولة أخرى، فتنكث عهدها مع الدولة الضعيفة لتتحالف مع الأقوى، فبين الله أن هذا الاختيار الانتهازي هو اختبار لمدى ثباتكم الأخلاقي والمبدئي أمام المغريات المادية **(يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ)** .

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [النحل: 93 - 94]

قانون التعددية والاختبار البشري: لو أراد الله قسراً لجعل البشر بنمط وفكر واحد، لكن الحكمة اقتضت جعلهم مختارين مريدين ليتحمل كل إنسان مسؤولية عمله.
التحذير من السقوط الأخلاقي الحركي: جاء ببلاغة التجسيد **(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)** وهو تمثيل حركي رائع للزلل والسقوط في هاوية الكفر والضياع الأخلاقي بعد الاستقرار والثبوت.

(وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هو خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [النحل: 95 - 96]

مقارنة القيم الاقتصادية والدنيوية: **(ثَمَنًا قَلِيلًا)** كل الدنيا ومتاعها وثرواتها ثمن قليل تافه إذا قورن بنقض العهود والانسلاخ من أوامر الله.
القاعدة الوجودية الكبرى لمتاع الدنيا والآخرة: صيغت بقسمة كونيّة قاطعة: **(مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ)** ؛ كل مدخراتكم ومبانيكم وأموالكم محكوم عليها بالفناء الحتمي، بينما ما عند الله من الأجر والجنة باق أزلي مستمر.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [النحل: 97]

قانون الحياة الطيبة والمعادلة الثنائية: **(مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ)** إرساء للمساواة الإنسانية والروحية المطلقة بين الجنسين في الأجر والعمل الصالح. وشرط الإيمان **(وَهُوَ مُؤْمِنٌ)** ركيزة أساسية؛ فالعمل الصالح دون إيمان وجذر عقدي متين هو هباء منثور.
جوهر (الْحَيَاةً الطَّيِّبَةً): الحياة الطيبة ليست بالضرورة الغنى والمال الوفير؛ بل هي حالة نفسية من القناعة، والرضا، والسكينة، وسلامة الصدر، والأمان الروحي الذي يستشعره المؤمن في قلبه في الدنيا.

🔹 ثانياً: بروتوكول التعامل مع التلقي والقرآن وحيل الشيطان والشبهات اللغوية

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) [النحل: 98]

بروتوكول القراءة والتلقي أصل تشريعي وفقهي؛ المعنى: إذا أردت وعزمت على قراءة القرآن, فابدأ بـ (الاستعاذة). والسر الروحي للاستعاذة عند التلقي أن الشيطان يحضر فوراً عند القراءة ليوسوس للقارئ ويشغل ذهنه ويسرق تركيزه لئلا يتدبر؛ فجاء الأمر بالالتجاء والتحصن بالله تصفية للذهن تماماً.

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ) [النحل: 99 - 100]

تحديد القوة التشغيلية للشيطان **(لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ)** لا يملك قوة قهرية أو سلطة إجبارية على إرادة المؤمنين الصادقين المتوكلين على الله. وينحصر سلطانه وتأثيره فقط في **(الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ)** ؛ أي الذين يفتحون له الأبواب باختيارهم، ويستجيبون لوساوسه.

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) [النحل: 101 - 102]

فلسفة النسخ والشبهة الجاهلية: **(بدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ)** الإشارة لظاهرة (النسخ) في الأحكام التشريعية تَبَعاً لمصالح العباد وتدرج التشريع. استغل المشركون هذا التدرج فقالوا للنبي: (إنما أنت مفتر) لعدم فهمهم لحكمة التشريع الإلهي وعلمه المحيط. فجاء رد المصدرية الطاهرة مبيناً **(رُوحُ الْقُدُسِ)** وهو جبريل عليه السلام، الموصوف بالطهارة والأمانة المطلقة، نزل به بالحق المحض.

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) [النحل: 103]

إفشال الشبهة اللغوية التآمريةكان المشركون يزعمون أن النبي محمد يتلقى القرآن ويتعلمه من غلام أعجمي نصراني كان في مكة. فجاء الرد القرآني بنسف موضوعي بليغ وعقلي حاسم: **(لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ)**؛ ذلك الغلام يتكلم بلغة أعجمية مكسرة لا فصاحة فيها **(وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)** وهذا القرآن بلغ ذروة البيان والبلاغة الفصاحة العربية الإعجازية، فكيف يتعلم البليغ الفصيح من الأعجمي؟

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) [النحل: 104 - 105]

حتمية الطرد المعرفي وقلب الطاولة الأخلاقية الاتهامية: من أغلق عقله وقلبه عن آيات الله كبراً، يُحرم من التوفيق والهداية الإلهية. وكانوا يتهمون النبي ﷺ بالافتراء والكذب، فرد القرآن بأن صفة الكذب والافتراء ملازمة أصيلة في الكافرين الجاحدين، أما الأنبياء فهم الصادقون المبرؤون المنزهون.

🔹 ثالثاً: فقه الإكراه وأثر الارتداد الكلي

(مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [النحل: 106]

أصل فقهي وسياسي عظيم في (الرخصة والإكراه): نزلت هذه الآية الكريمة في الصحابي الجليل عمار بن ياسر رضي الله عنه، عندما عذبه مشركو قريش عذاباً شديداً وأجبروه تحت وطأة التعذيب الشديد على نطق كلمة الكفر، فنطقها بلسانه لإنقاذ حياته وجاء إلى النبي باكياً حزيناً فنزلت الآية مبرئة ومثبتة لرخصته.

تشريح بنية الرخص القلبية(إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)العبرة والجذر الحقيقي للتدين هو القلب. فإذا كان اللسان مجبراً تحت التعذيب الحسي والتهديد بالموت بينما القلب نابض مطمئن بالتوحيد فلا إثم عليه. والإشكالية والوعيد لِمن يرتد باختياره، ورضاه **(وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا)** .

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [النحل: 107 - 109]

السبب السيكولوجي والتحليلي للارتداد: تقديم مصالح الدنيا العاجلة، والخوف على المناصب والأموال والأجساد، وإيثارها على مقاييس الآخرة الباقية الباطنة.

قانون الإغلاق والختم المعرفي الحسي والشامل(طَبَعَ اللَّهُ)ختم وأغلق المنافذ المعرفية الأساسية (القلب، السمع، البصر)، فلا تصل إليها أنوار الحق بسبب تراكم الغفلة والكبر؛ مما يؤدي حتماً وقاطعاً **(لَا جَرَمَ)** إلى الخسران المطلق في الآخرة.

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [النحل: 110 - 111]

الرحمة والمواساة للمستضعفين الفارين بدينهملفتة لِمن فُتن وعُذِّب في مكة، ثم تمكن من الهجرة والجهاد والصبر؛ فالله يغمر تقصيرهم وبلواهم السابقة بفيض مغفرته ورحمته الواسعة العظيمة.

الأنانية المطلقة والمجادلة النفسية يوم القيامة: هذا المشهد القيامي، تنفصل الروابط العائلية والاجتماعية تماماً؛ فلا يلتفت الأب لولده ولا الصديق لصديقه: **(تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا)**. كل إنسان مستغرق تماماً في الدفاع عن نفسه ومصيره الفردي.

🔹 رابعاً: مثل القرية الجاحدة وفلسفة التحريم والتحليل

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [النحل: 112]

مَثَل السقوط الحضاري والاقتصادي (مكة والقرى الشبيهة): **(قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً)** تتمتع بأعظم نعمتين تطلبها المجتمعات البشريّة: (الأمان النفسي والاجتماعي الحسي) **(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ)** الوفرة الاقتصادية والمالية والغذائية الميسرة دون عناء وسفر. وقابلوا النعم بالجحود وتكذيب الرسل **(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ)**.

بلاغة التجسيد الحسي للعقاب (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ): الجمع بين لفظ **(فَأَذَاقَهَا)** الذي يتعلق بحاسة التذوق والفم، وبين لفظ **(لِبَاسَ)** الذي يتعلق بالجسد والظاهر. والسر البلاغي: إشارة إلى أن الجوع والخوف قد أحاطا بهم إحاطة اللباس اللصيق بالجسد من الخارج، وتغلغلا في أبدانهم تغلغل الطعم المذاق في الداخل.

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [النحل: 113 - 114]

تطبيق المَثَل التاريخي الواقعي: على كفار مكة الذين جاءهم النبي محمد ﷺ من أنفسهم يعرفون صدقه وأمانته فكذبوه، فاستحقوا العقوبة التاريخية (كالقحط والسنوات السبع التي مرت بمكة). ويقابله المنهج الاقتصادي والغذائي للمؤمن في العودة لتنظيم استهلاك الطيبات وشكر المنعم.

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [النحل: 115]

حصر وتحديد المحرمات الغذائية الأساسية: **الْمَيْتَةَ** (الحيوان الذي مات حتف أنفه دون تذكية) **الدَّمَ** (الدم المسفوح الجاري)، **لَحْمَ الْخِنزِيرِ** (لنجاسته وأضراره الفيزيولوجية والصحية)، **وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** (ما ذُبح باسم الأصنام والأولياء والطواغيت).

فقه الضرورة الاستثنائي: **(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ)** إباحة الأكل من هذه المحرمات بقدر إنقاذ الحياة عند المجاعة الشديدة، بشرط أن لا يكون كارهاً للشرع أو متجاوزاً للقدر المطلوب لحفظ الحياة؛ فالإسلام دين يحمي النفس البشرية أولاً.

(وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [النحل: 116 - 118]

التحذير الصارم من الافتراء التشريعي وتدنيس التحليل والتحريم: التحليل والتحريم حق حصري خالص لله ورسوله عبر الوحي. فمن يشرع من تلقاء نفسه، أو يحرم طيباً، أو يحلل خبيثاً بناءً على هواه الشخصي، فهو يفتري على الله الكذب، ولن ينال فلاحاً في الدنيا أو الآخرة.

التفريق التاريخي العقدي لشرائع اليهود: الإشارة لما حُرِّم على اليهود من الطيبات عقوبة تشريعية وتأديبية

لهم بسبب بغيهم وظلمهم ونقضهم للعهود؛ فالله عادل لا يظلم عباده بل العباد يظلمون أنفسهم بذنوبهم وانحرافاتهم.

🔹 خامساً: أصل المراجعة الروحية والأمة الإبراهيمية التوحيدية الشاملة

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) [النحل: 119]

باب الأمل والعودة المفتوح: **بِجَهَالَةٍ** تعني أن كل من عصى الله فهو جاهل بعاقبة الذنب وجلال من يعصيه. ومعادلة التوبة الصحيحة والمقبولة تتكون من شقين: **(تَابُوا... وَأَصْلَحُوا)** ؛ فالتوبة النصوح لا تقف عند الندم النفسي الباطني فقط، بل يجب أن يُتبع الندم بإصلاح حركي وتطبيقي وتعديل للسلوك الخارجي.

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) [النحل: 120 - 122]

الأوصاف الأربعة المعجزة لشيخ الأنبياء:
أُمَّةً: الأمة هي الجماعة الكثيرة، ووصف الفرد بأنه "أمة" له سر بلاغي عظيم: أنه كان جامعاً لخصال الخير والكمال الأخلاقي والروحي التي تفرق في أمة كاملة من الرجال، أو لأنه كان على التوحيد وحده فريداً في الأرض.
قَانِتًا لِّلَّهِ: القنوت هو دوام الطاعة، والخشوع، والانقياد الدائم المستقر الطويل.
حَنِيفًا الحنيف هو المائل عن الشرك والباطل ومذاهب الجاهلية قصداً وتوجهاً إلى التوحيد الخالص والحق المستبين.
وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ براءة تامة مطلقة وتأكيد حاسم لقطع دابر مزاعم قريش واليهود والنصارى الذين حاولوا نسبته لعقائدهم المنحرفة.
قمة الشكر والاصطفاء: (شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ) ربط مباشر بعنوان السورة (النعم)؛ فإبراهيم تفوق في مقام الشكر لكل نعمة صغرت أو كبرت، فاستحق الاصطفاء والاختيار الإلهي.

(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [النحل: 123]

الامتداد الرسالي والشرعية المطلقة يأتي الأمر الإلهي الصريح للنبي ﷺ **(اتباع)**، ليوكد أن الإسلام الخاتم ليس ديناً منقطع الجذور، بل هو الامتداد النقي والشرعي لعقيدة أبي الأنبياء إبراهيم. وسر تكرار **(وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)** نفيٌ حاسم وتدميرٌ لكل محاولات المشركين الجاهليين للاحتماء خلف الإرث الإبراهيمي.

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [النحل: 124]

تفكيك الشبهة التاريخية لليهود: أراد اليهود فرض شريعة السبت وتقديسها كمعيار عالمي للتدين، فجاء البيان القرآني ليوضح أن السبت لم يكن تشريعاً إبراهيمياً عاماً، بل كان عقوبة خاصة وتضييقاً جُعل على بني إسرائيل **(الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ)** ونقضوا العهود واحتالوا على أمر الله، بينما الملة الإبراهيمية المحمدية قائمة على اليسر والحنيفية السمحة.

🔹 سادساً: الدستور الدعوي الخالد والمناورة الحوارية وقانون القصاص الأخلاقي والختم الذهبي المعجز

(ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [النحل: 125]

هذه الآية هي "المانيفستو" والدستور الأعلى لكل مصلح، وداعية، وحركي، وتتألف من ثلاث أدوات استراتيجية متدرجة بحسب طبيعة المتلقي:

الْعَدْلِ / الْحِكْمَةِ: وهي وضع الشيء في موضعه المناسب، ومخاطبة العقول بالبراهين والمنطق الجلي، وتُستخدم مع النخبة الباحثة عن الحق بتجرد.

الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ: خطاب العاطفة والوجدان المدعم بالترغيب والترهيب الرقيق، وتُستخدم مع عامة الناس والقلوب القريبة التي تحتاج إلى تذكير وتليين.

وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ: عند الانتقال إلى مربع الجدال والمناظرة مع المخالف والخصم، صاغها بـ**(أَحْسَنُ)** على وزن أفعل التفضيل؛ أي باختيار أرفق الكلمات، وأهدأ الأساليب، والابتعاد التام عن السخرية، أو الاستعلاء، أو جرح كرامة الخصم، لإقامة الحجة وهدم الباطل دون صناعة عداوة شخصية.

السيادة التقييمية لله: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ)؛ وظيفة الداعية هي البلاغ والمحاجة بالتي هي أحسن، أما تصنيف الناس وهدايتهم أو ضلالهم فهي مسألة غيبية من اختصاص عليم الغيوب وحده، وفي هذا حماية للداعية من اليأس أو التسرع في الأحكام.

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ) [النحل: 126]

ميزان العدالة والقصاص بالمثل: يضع القرآن هاهنا السقف التشريعي والأخلاقي للمواجهة والرد؛ فالعدل المطلق يقتضي أن لا يتجاوز رد الفعل حدود الجناية الأصيلة **(بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ)** دون بغي أو تشفٍّ.

السمو والتفضل بالصبر: بعد تشريع الحد الأدنى وهو العدل، يفتح القرآن الباب للارتقاء إلى مقام الإحسان **(وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ)** ؛ فالعفو والصبر عند المقدرة يكسر كبرياء الخصم ويفتح القلوب للدعوة.

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) [النحل: 127]

المدد الإلهي للصبر النبوي: يلتفت الخطاب مباشرة إلى النبي ﷺ بصيغة الأمر الفردي **(وَاصْبِرْ)**، ويربط هذا الصبر بالمدد الإلهي **(إِلَّا بِاللَّهِ)** ؛ فالصبر الحركي والدعوي يحتاج إلى طاقة روحية مستمدة من نبع التوكل، لا من القوة الذاتية.

الحماية النفسية من المكر (وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ) تطمين لقلب النبي ومواساة له؛ فمهما بلغت المؤامرات والمكائد السياسية والإعلامية من الخصوم **(مِّمَّا يَمْكُرُونَ)** ، فإن الله يحيط بها ويفشلها، فلا مبرر للحزن أو للشعور بالاختناق النفسي.

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [النحل: 128]

معية التأييد والنصر والختم الذهبي: تُختم السورة الكريمة، سورة النعم، بهذه القاعدة الوجودية العظمى. المعية هنا ليست معية العلم والإحاطة العامة بالخلق، بل هي معية خاصة جداً عنوانها: (التأييد، الحفظ، النصر، والتمكين). وعلق الله نصرته وتأييده على وصفين حيويين متكاملين:

الَّذِينَ اتَّقَوْا: الحماية الداخلية والخارجية بترك المحرمات، والعهود الفاسدة، والنكث، والشرك والافتراء التشريعي (الجانب الوقائي/التخلية).

وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ: المبادرة بفعل الخيرات، والعفو، والدعوة بالحكمة، والعطاء فوق الواجب (الجانب البنائي الحركي/التحلية).

تَمَّ بِحَمْدِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ وَمَدَدِهِ، بِقَلَمِ البَاحِثَةِ: غُصُون بِنْت الصِّدِّيقَةِ عُفِيَ عَنْهَا وَعَنْ وَالِدَيْهَا.